الثروة اللغوية

بين السماع والقياس

يستشكل كثيرون استعمالي الجمعَ "حَوالَى"، ولا يرونه صحيحًا لأن الصواب عندهم "حَوالَي". وأصل هذا المعنى هو الحَولُ أي : الجِهة والقُرب . يقال : حَولُ الشيءِ أي : جانِبُه الَّذي يُمكِنُه أن يحولَ إليه ، قال الله تعالى [١]: ﴿ الَّذِينَ يَحمِلُونَ العَرشَ ومَن حَولَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمدِ رَبِّهِم ﴾ ، ويُقال :

" قَعدْنا حَولَكَ وحَوالَيكَ وحَوْلَيك مُثنَّى حَوالٍ وحَوْلٍ، وحَوالَكَ وأحوالَكَ جَمع حَوال وحَوْلٍ ، بمَعنًى واحدٍ. وإنَّما يُريدون الإحاطةَ من كلّ وَجه . وفي حديث الدّعاء: اللَّهُمَّ ، حَوالَينا ولا علَينا ".[٢] أمّا قول البعض : " حَضَر حَوالَى عشَرةِ آلاف مُشاهِد " فمرفوض عند بعضهم لعدم وروده بهذا الضبط في المعاجم .[٣]

فالمستشكلون لضبط " حَوالَى " دون موقعه من العبارة في الوظيفة النحوية عُمدتهم في ذلك افتقادُه في المصادر اللغوية ، وكنتُ قد استصوبتُه واستعملته منذ عقود ، وعلّقت تفسيره على هامش صفحة من مادّة (حول) في معجم معاصر عنوانه " لغة العرب " ، يورِدُ مؤلّفُه بوفاء ونجاحٍ الكثيرَ من القياسيّ الذي لم تذكره المعاجم العربية ، وبيّنتُ وجه " حَوالَى " من الصواب ، والنسخةُ الآن هي حبيسة في أحضان ديمقراطيات الخُلَفاء وزبانيتهم ، لا أدري ما وجه التفسير فيها، ولا يصل إليها شياطين الإنس والجانّ .

وأكثرُ مِثْلِ هذه المعاني عندي من أسماء الزمان والمكان هو مصادر ، عُبّر بها عن اسم الفاعل للمبالغة ، ونُقلت إلى الدلالة الظرفية لتوكيد المبالغة . وعلى هذا ترى نحو : فوق وتحت وبعد وقبل ومساء وصباح وزمن وقُرب . . . وكذلك شأن الأصل "حَوْلَ " هو مصدر للفعل : حالَ يَحولُ ، عُبّر به مفردًا وبمبالغته " حَوال " في صيغ التثنية والجمع للدلالة على الإحاطة من

---

(١) الآية ٧ من سورة غافر .

(٢) تاج العروس ٢٨ : ٣٧١ ومتن اللغة ٢ : ٢٠٤.

(٣) معجم الصواب اللغوي ١ : ٣٣٧. وانظر النحو الوافي ٢ : ٢٦٢ .

كلّ صوب . وقد ورد في أسماء المصادر نحوُ : نَجوَى وشَكوَى ورَعوَى وبَقوَى ودَعوَى وشَروَى وتَقوَى وفَتوى وبَلوَى وسَلوَى . فليكن من ذلك اسم المصدر" حَوْلَى " من الحَول والإحاطة أيضًا ، وجمعُه "حَوالَى" على قياس : شَكاوَى ودَعاوَى وفَتاوَى وبَلاوَى . ثم لعلّ حَوالَينا هو مُثنَّى حَوالنا .

فإن قيل : لم نقف على لفظ " حَوالَى " واردًا فيما بين أيدينا من المصادر اللغوية الموثّقة ، قلنا : هذه المصادر الموثّقة لم تجمع كلّ ما قاله العرب في التاريخ القديم ، وإنما جمعتْ ما وصل إلى أصحابها في أيّامهم من باقي اللغة ، وذهب عنهم ما هو أكثر وأوفى . رحم الله شيخي الأستاذ سعيد الأفغاني ، كان فيما درّسنا من النحو والصرف يخاطب الأوصياء على العربية الذين يخطّئون ويصوّبون العبارات والكلمات بقوله : ‘‘ مَن جمعَ لكم اللغة على طبَق حتّى أجزتم لأنفسكم الحُكم بالتخطئة والتصويب ، فقلتم : هذا منها وهذا ليس منها ‘‘؟ ولقد أنصف العربيةَ الفيروزاباديُّ بحديثه عن المعاجم في خطبة القاموس المحيط فقال : [٤]

" وكنتُ بُرهة من الدّهر ألتمسُ كتابًا جامعًا بَسيطًا، ومصنَّفًا على الفُصَحِ والشّوارد مُحيطًا، ولمّا أعياني الطّلابُ شرَعتُ في كتابي الموسوم بِـ " اللّامع المُعْلَم العُجاب الجامعِ بين المُحكَم والعُباب "، فهُما غُرّتا الكتبِ المُصنّفة في هذا الباب ، ونيّرا بَراقعِ الفضل والآداب، وضممتُ إليهما زيادات امتلأ بها الوِطاب ، واعتلَى منها الخِطاب ، ففاق كلّ مُؤلَّف في هذا الفنّ هذا الكتاب .

غير أنّي خَمّنتُه في سِتّين سِفرًا، يُعجِز تحصيلُه الطُّلّاب ، وسُئلتُ تقديم كتابٍ وجيز على ذلك النّظام ، وعملٍ مُفرَغ في قالب الإيجاز والإحكام ، مع التزام إتمام المعاني وإبرام المباني، فصرفتُ صوب هذا القصد عِناني، وألّفتُ هذا الكتاب . . . ولخّصت كلّ ثلاثين سِفرًا في سِفر، وضمّنته خلاصة ما في العُباب والمُحكَم ، وأضفتُ إليه زيادات مَنّ الله ـ تعالى ـ بها وأنعمَ ، ورزقنيها عند غوصي عليها من بطون الكتب الفاخرة الدَّأْماءِ الغَطَمطَمِ ، وسمّيته (القاموس المحيط) لأنّه البحر الأعظم .

ولمّا رأيت إقبال النّاس على صِحاح الجوهريّ وهو جدير بذلك ، غير أنّه فاتَه نصفُ اللّغة أو أكثر إمّا بإهمال المادّة أو بترك المعاني الغريبة النّادّة ، أردتُ أن يَظهر للنّاظر بادئَ بدءٍ فضلُ كتابي هذا عليه . . . ولم أذكر ذلك إشاعة للمفاخر ، بل إذاعة لقول الشّاعر : كم تركَ الأوّلُ للآخِر ! "

---

[٤] القاموس المحيط ص ٢٧ .

فهذا صنيع الجوهري في الصِّحاح والفيروزابادي في القاموس ، لا ينال من المخزون العربي في آلاف القرون من عهد هود ﷺ إلاّ أقلّ القليل ، ومع ذلك يَعتمد عليه أوصياء العربية ويسدّون علينا باب الجِهاد والاجتهاد ، وهما ماضيان إلى يوم القيامة ، لنبقى في جحيم التبويش والاستغراب والعامّيات. ولقد كان الإمام الخليل قد فتح لنا الأبواب على مَصاريعها بالنهج العلمي المتقن ، حين أورد في معجم " العين " ما هو مُستعمَل في عصره ، وأتبعه بما هو مُهمَل جاهز للاستعمال حين الحاجة من تقليب أحرف المادّة تقديمًا وتأخيرًا بالقسمة الرياضية ، ثم قال : " ما قِيسَ على كلام العرب فهو من كلامهم " ، يريد القياس الدقيق بالمناهج العلمية وأصول العربية وأساليبها في البيان والتبيين . وبذلك قطعتْ جَهيزةُ قولَ كلّ خطيب .

ولو أن العربي استنفد كل طاقات لغته بالقياس وتوليد المفردات التي تحتملها القسمة الخليلية الرياضية لكان لدينا من الكلمات بحسَب تلك النظرية ما يلي : [٥]

الاسم الثلاثي المجرّد : ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ ×١٢ = ٢٦٣٤٢٤

والاسم الرباعي المجرّد : ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ ×٤٨ = ٢٩٥٠٣٤٨٨

والاسم الخماسي المجرّد : ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ × ١٩٢ = ٣٣٠٤٣٩٠٦٥٦

ومجموع ذلك في الأسماء المجرّدة هو : ٣٣٣٤١٥٧٥٦٨ ، وهو بعد إسقاط ما يتعذّر لفظه أو يثقل لأسباب صوتية أكثرُ من ثلاثة مليارات كلمة جاهزة للاستعمال عند الحاجة العملية إليها . [٦]

وهذا في المفردات الخاميّة الخالصة تُستعمل للدلالة الوضعية الخاصّة ، من دون مَجاز واشتراك وتضادّ وتضمين واصطلاح واستخدام فنّي ونحت وتركيب ، أو تأنيث ونسبة وتثنية وجموع ، أو زيادات حروف للمعاني الصرفية المشهورة. والمعروف أن ما صاغه العربي وبقي في الاستعمال حتى الآن من مجرّدات للأسماء والأفعال قد تجاوز ١٠٠ ألف كلمة ، ولا شك أن نسبة ١٠٠٠٠٠ إلى مجموع ما يتحصل من مضاعفة المليارات الثلاثة بالصيغ المذكورة مع حصيلة الأفعال أيضًا ، هي في حكم النادر ، وهي أيضاً تُحقّق ما ذهبنا إليه من القُدرة على التوليد والاستيعاب .

---

(٥) انظر مجلة الفكر العربي ٦٠ : ٥٤ - ٥٥ وكتابنا : " لا يزلون يقاتلونكم : في ميدان التعليم والبحث العلمي وعروبة اللسان " ص ٩٨ - ١٠٤

(٦) بلهَ مجرَّد الأفعال والمزيد منها ومن الأسماء حين تتلبسُ بالأحرف العشرة المعَدّة لصياغة المزيدات من المفردات .

وقد بسط ابن جنّي هذا الغِنى اللغوي بما ذكرنا من المليارت ، مع زيادة الأحرف العشرة بين أحرف المادّة الواحدة ، لتكون عشرات المليارات بل المئات منها ، مشبّهًا موقفَ العرب فيه بمن كان عنده مال كثير جدًّا جدًّا ، وأراد إنفاق بعضه ، فتناول ما كان قريبًا منه لكفاية حاجته ، وترك الباقي تراثًا للأجيال المقبلة لأنه لم يُرد استيعاب جميع ما يملك .

قال : فلمّا كان الأمر كذلك واقتضَتِ الصورة رفض البعض واستعمال البعض , وكانت الأصول وموادّ الكلم مُعرِضة لهم وعارضة أنفسها على تخيّرهم , جرت لذلك عندهم مَجرى مالٍ مُلقًى بين يدي صاحبه , وقد أجمع إنفاق بعضه دون بعضه , فميّز رديئه وزائفه فنفاه البتّةَ كما نفَوا عنهم تركيب ما قبُح تأليفه , ثم ضرب بيده إلى ما أطّف له من عُرض جيّدِه فتناوله للحاجة إليه , وترك البعض لأنه لم يرد استيعاب جميع ما بين يديه منه لِما قدّمنا ذكره ، وهو يرى أنه لو أخذ ما ترك مكان أخذِ ما أخذَ لأغنى عن صاحبه ولأدّى في الحاجة إليه تأديتَه . [٧]

وها نحن أولاء أنا وأنتم ـ أيّها الأحباب ـ مع الإمام الخليل بالسمع والطاعة فيما رسم لنا من النهج المُبين ، وحَوالَى هو جمع حَوْلَى ، نحو : شكاوَى ودَعاوَى وفتاوَى جمع شَكوَى ودَعوَى وفَتوَى، وحَوْلَى ورد صفة بمعنى الناقة الحائل التي لم تحمل مثل بَلوَى أي : مُصيبة ، ويكون اسم مصدر للفعل : حالَ يحولُ مثل : سَلا يَسلو سَلوَى ، ويكون اسم ذات بمعنى المكان حولَ الأشياء مثل : فَتوَى أي : ما يُفتَى به ويُقوَّى . بل إن استِعمال " حَوْلَى وحَوالَى " أيسرُ من " حَوالَي " التي كثيرًا ما يستعملها الجَهَلة ظرفية في مواقع الرفع تعبيرًا عن الذوات دون تنبّه كما ترى القول المتقدّم في <u>الصواب اللغوي</u> ، وكذلك قول أحد الأوصياء على العربية : حضرَ الاجتماعَ حوالَيْ مائةِ شخص ، ونجحَ في المباراة حوالَيْ عشرةِ أفراد . [٨]

والحمد لله أوّلاً وآخرًا .

(٧) الخصائص ١ : ٦٥ .
(٨) معجم تصحيح لغة الإعلام العربي ص ١١٠ .